معالم الشّخصية الاجتماعية للرّسول ﷺ

Landmarks of the social aspect of the prophet (S.A.W)

د/عبد الحميد خرّوب *

ABSTRACT

The personality of the messenger, before and after prophethood was admired by both; friends and foes. whoever learned or read about him without prejudice is bound to lose skepticisim, and not hesitate to appreciate his greatness, acknowledge his favours, and follow his path, for the bright lights of his persona(s.a.w) dissipates the darkness of shirk and Ignorance,softens the stiffness of hearts, makes orphans forget the bitterness of their plight, the bereaved– the pain of bereavement,the needy– the stings of want, and the weak –the weight of indignity. Despite being met with great harm from those closest to himself; his relatives, he chose patience and kindness. He knew no injustice nor cajolery. He was kind and courteous to his neighbors, a step shy of bequeathing them. He commanded children be kind to their parents even if they were Mushrik. He emphasized on mothers, for they are delicate, and more deserving of care and kindness. Women were honored and enjoyed a distinguished place, as the Prophet had returned to them their forsaken humanity during the preceeding dark era in which they held no significance. His favors weren't exclusive to his wives but extended to include all women, Muslim or otherwise, he treated them with kindness and called them"AlQawareer"(Glass flasks) for they are pure and delicacte. He corrected them when they erred, and equated men who toil to meet their needs with those who fend off enemies on fronts. He commanded in his last moments that women be treated righteously. The French orientalist, Lewis Seidio, was impressed by the personality of the prophet(s.a.w)and the manner in which he conducted himself and treated other people, which induced them to call him "the truthful, the honest", until he was entrusted with the message and began calling his people to the one true god, to which they opposed him viciously, but heeded his call eventually. He was kind to the elderly,tender to the young, a teacher and a wise man in service of his society, a stream of knowledge and manners to the whole world. this paper discuses in detail those traits.

Keywords:prophet,landmarks,social,aspect,women,orientalist,seidio, AlQawareer,bequeathing.

* رئيس قسم الدّعوة والثّقافة الإسلامية ، كلية أصول الدّين ، الجامعة الإسلامية العالمية ،إسلام آباد.

إنّ الشّخصية الاجتماعية للرّسول ﷺ قبل النّبوّة وبعدها، كانت محلّ إعجاب وتقدير أعدائه وأصدقائه،وكلّ من عرفه أو قرأ سيرته العطرة- بصدق وإخلاص- بحثا عن الحقيقة ،زالت شكوكه،وماتت وساوسه، ولم يتردّد لحظة في الإقرار بعظمته، والشّهادة بفضله،والاهتداء بهديه،فأنوار شخصيتهε السّاطعة، تبدّد ظلمات الشّرك والجهل،وتذيب قساوة القلوب،وتزيل غشاوتها، وتنسي اليتامى مرارة اليتم،والأيامى حرارة الثّكل،والمحتاجين لفحات الدّهر، والضعفاء أثقال الذلّ، ومع أنّه لقي من أقاربه أذى كبيرا،إلا أنّه صبر عليهم،وقابل إساءتهم بالإحسان إليهم،وكان بهم رؤوفا رحيما،ورحمته لاتعرف الحيف والمداهنة،فهو أعدل النّاس، وأصدقهم قيلا، وقد كان εرقيق القلب مع أهل بيته،عطوفا على الجار حتى كاد أن يورّثه،كما أنّه كان مشفقا على قومه،رحيما بالنّاس أجمعين، وقد أمر الأبناء بالعطف على الوالدين، ومصاحبتهم بالمعروف،ولو كانا مشركين،وأكّد على حسن مصاحبة أمّهاتهم والرّفق بهنّ،لأنّهنّ أحوج من الآباء إلى الرّعاية، لضعفهنّ.

ولقد كان المستشرق لويس سيديو معجبا أيّما إعجاب بالشّخصية الاجتماعية للرّسولε،منبهرا بحسن سيرته واستقامته مع النّاس الذين لقّبوه بالأمين،وباستمراره على هذه الصّفات الحميدة حتّى نادى بالرّسالة،ودعا قومه إليها،فعارضوه أشدّ معارضة،ولكن سرعان ما لبّوا دعوته،وناصروه، وما زال في قومه يعطف على الصّغير ويحنو على الكبير،ويفيض عليهم من علمه وحكمته،وعمله وأخلاقه[1]، حيث كانت شخصيته الاجتماعية ε ينابيع خير للعالمين،وهذا ما يجلّيه هذا البحث،وتكشف سطوره تفاصيل ذلك من خلال المباحث التالية:

المبحث الأوّل: كمال الصّفات الحميدة

جمعت شخصية النّبيّ ε صفات الكمال، فأثّرت في النّاس تأثيرا عظيما، لأنّها تستمدّ كمالها من مشكاة النّبوّة، فهي شخصية نبيلة عريقة النّسب، في مجتمع يقيم وزنا عظيما للأنساب والأحساب، ولها جاذبيّة قويّة تشدّ النّاس إليها من كلّ معدن، وكلّ طراز، بصدق مخبرها، وطهارة باطنها وظاهرها، وتلاطفهم برفق وحنان، وتخالطهم في الخير،وتتواصل معهم بصدق،وتحسن الاستماع إلى أحاديثهم، وتسعى بجدّ إلى إيجاد حلول مناسبة لمشكلاتهم،وتقديم المساعدات اللازمة إليهم،وترعى مصالحهم، وتشاركهم في أفراحهم وأتراحهم، وتستميل قلوبهم بحلاوة حديثها،وجمال أخلاقها، وحسن مظهرها، وصباحة وجهها،وفصاحتها في اللّسان والكلام،والنّطق، والأداء،والموضوع،وأريحيتها الفياضة،التي تشارك

١ . انظر لويس سيديو . تاريخ العرب . ص ٥٨ . (بتصرّف)، وأصل الكتاب "Histire des Arabes" ألّفه بالفرنسية وأشرف علي مبارك باشا على ترجمته إلى العربية،وسمّاه "خلاصة تاريخ العرب العام ".

النّاس في دعاباتهم،ومزاحهم،وضحكاتهم،كلّ ذلك بقدر موزون،وتستقبل النّاس بابتسامتها المشرقة وتقابل أخطاء المخطئين والجاهلين، بالستر،والعفو،والترشيد والإحسان، فأحبّها النّاس،وتجمّعوا حولها واتخذوها قدوة لهم أبدا.

وبعبارة موجزة،كلّ صفات الجمال والجلال والكمال التي تفرّقت في غيره، اجتمعت في شخصيتهε،وفي ذلك دلالة واضحة، لمن رزقه الله قلبا بصيرا، وعقلا رشيدا،على أنّه نبيّ مرسل من ربّ العالمين.

وبفضل تكامل شخصيته وتوازنها، فتحت صفحة جديدة في تاريخ الإنسانية عامة، وفي بيئته الاجتماعية خاصّة، التي برزت فيها مظاهر هذا التكامل، الذي خطّت سطوره السّيرة النّبوية العطرة،التي نقتطف من بستانها الزّاهر، الطيّب شذاه،بعض هذه المظاهر خلال المطالب التالية:

المطلب الأوّل: مهارة التغيير

كان يمتلك المهارة اللازمة لإحياء فطرة الله، التي فطر النّاس عليها،وتعطّلت مع الأمد الطويل، وانحرفت عن مسارها الأصيل،حيث بذلε جهدا جهيدا في الاهتمام بصيانتها، للمحافظة على آدائها السّليم باستمرار، فكان يدعو النّاس للتبصّر بعمق في أنفسهم، والنّظر في الموجودات من حولهم، والتأمّل في نشأة الكون، والتفكير بدقّة في خلقهم ومصيرهم، وكانε يدعو بنظرة عميقة وعزيمة قويّة،ونفس ثابتة،ولهجة صادقة،وهذا الأسلوب الحكيم، والمهارة العالية،كانا سببا في نبذ النّاس للشّرك والإيمان بالتوحيد،والشعور بإنسانيتهم،وكرامتهم ومنزلتهم الرّفيعة بين الموجودات،وحبّهم للنّبيّ والاقتداء به،وحين اطّلع"اتيين دينيه"على دعوة النّبيّ ،وقرأ سيرته الزّكية،عرف أنّه كان يحبّ الخير للنّاس ويسعى لإخراجهم من الظّلمات إلى النّور فقال: "وكان مظهر الدّين الجديد في بساطته وعظمته،وفي انسجامه مع ماتتطلّع إليه الفطر السّليمة يجعلهم يشعرون بنفور شديد من عبادة الأصنام التي عاشوا عليها طيلة ماضيهم ومع كلّ فهذا الدّين الجديد إنّما هو دين جدّهم إبراهيم الذي يحملون أثره بطريقة لاشعورية في قلوبهم، وكان من السّهل عليهم لذلك أن يدينوا به من جديد،وكانت لهجة الدّاعي إليه،تلك اللّهجة التي تسمو فوق حدود الإنسانية،وكانت نظرته التي يشعّ منها الضّياء،تخرجهم من الظّلمات إلى النّور فيسرعون إلى اعتناق الإسلام بين يديه"[1].

---

١ . اتيين دينيه . محمّد رسول الله . ص١١٧

المطلب الثاني: إقامة العدل والمساواة

أصبحت المرأة في ظلّ الإسلام،مثل أخيها الرّجل،لها ما له، وعليها ما عليه،فكلّ منهما له دوره ومهمّته الخاصّة،وتوزّع المسؤوليات عليهما حسب طبيعة كلّ منها،فللمرأة من الأعمال ما يناسبها كإمرأة،وللرّجل من الأعمال ما يناسبه كرجل،قال تعالى:" واللّيل إذَا يغشى والنّهار إذَا تجلّى وَمَا خَلَقَ الذّكر والأنثى إنَّ سَعْيَكُمْ لشتّى"[١].

ولم يكن هذا التغيير بالأمر اليسير،بل كانت دونه عقبات كأداء،ذلّلتها نصوص الوحي بتوجيهاتها الرّشيدة،وتعاليمها الحكيمة،التي محت المفاهيم الخاطئة التي عشعشت في الأذهان حينا من الدّهر،وحرّرت النّفوس من مشاعر الاحتقار والإهانة،وصحّحت المفاهيم التي لها الأثر الكبير في سلوك الإنسان وموقفه من قضايا الحياة،وكيفية تعامله مع الآخرين، وترجمتها سيرته في الواقع،فكانت المثل الأعلى الذي يقتفى أثره، ويقتدى به،وصور تطبيقه لمبدأ العدل والمساواة كثيرة،منها:

أ- التزامه بمبدأ العدالة:

شمل عدل النّبيّ ﷺ النّاس أجمعين،فلا يقدّم غنيّا على فقير،ولا قويّا على ضعيف، ولا قريبا على بعيد،ولا رجلا على امرأة،ولا صديقا على عدوّ، ولا مؤمنا على كافر، وجعل من مبدأ العدالة، قيمة واقعية،متداولة في المجتمع،وصور عدله كثيرة،منها:

١- عدله مع أهل بيته

كان صلى الله عليه وسلم يعدل بين نسائه في كلّ شيء ممّا يملكه،من المسكن والنفقة،والقَسْم والمبيت،والعناية حتى إنّه إذا أراد السّفر،أقرع بين نسائه، تقول عائشة رضي الله عنها :" كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج سفرا، أقرع بين نسائه، فأيّتهنّ خرج سهمها،خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه"[٢].

قال ابن تيمية:" يجب أن يعدل بينهما في السفر بالتراضي أو القرعة،وكان النّبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه،وسافر بمن حصلت لها القرعة،والواجب التأسّي به في ذلك عليه

---

١ . سورة الليل ،الآية(١-٤)

٢. مسلم ، الجامع الصحيح ،ط٢، دار السّلام، الرياض ٢٠٠٠م ،كتاب التوبة ، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف،ص ١٢٠٥،رقم ٧٠٢٠

الصّلاة والسلام؛ لقول االله عزّوجل،ولأن في سفره بإحدى زوجتيه أو زوجاته بدون تراض ولا قرعة،ظلماً للمتروكة أوالمتروكات واالله سبحانه قد حرّم الظلم على عباده وأمر بالعدل"[١].

ويقول المناوي:" (أقرع بين نسائه) تطييبا لنفوسهن وحذرا من الترجيح بلا مرجّح عملا بالعدل"[٢].

٢- عدله بين النّاس:

لايميّز صلى الله عليه وسلم في تطبيق العدالة بين الشّريف والضّعيف،ولايخشى في الله لومة لائم،ولا يحابي أحدا ولو كان أقرب المقرّبين إليه،روى البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها أنّ قريشا أهمّهم شأن المرأة التي سرقت في عهد النّبي صلى الله عليه وسلم في غزوة الفتح فقالوا من يكلّم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فقالوا ومن يجترئ عليه إلاّ أسامة بن زيد حبّ رسول صلى الله عليه وسلم،فأتي بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلّمه فيها أسامة بن زيد،فتلوّن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فقال:أتشفع في حدّ من حدود الله،فقال له أسامة استغفر لي يارسول الله،فلمّا كان العشي قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاختطب فأثنى على الله بما هو أهله،ثمّ قال أمّا بعد فإنمّا أهلك الذين من قبلكم أنّهم كانوا إذا سرق فيهم الشّريف تركوه،وإذا سرق فيهم الضّعيف أقاموا عليه الحدّ،وإنّي والذي نفسي بيده لو أنّ فاطمة بنت محمّد سرقت لقطعت يدها "[٣].

عدله مع غير المسلمين:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ يهوديا رضّ رأس جارية بين حجرين فقيل لها:من فعل بك هذا؟ أفلان أو فلان؟ حتّى سمّي اليهودي فأتي به النّبي ﷺ فلم يزل به حتّى أقرّ به،فرُضّ رأسه بالحجارة"[٤].

وروى البخاري بسنده عن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من حلف على يمين، وهو فيها فاجر، ليقتطع بها مال امرئ مسلم، لقي الله وهو عليه غضبان، قال: فقال الأشعث: في والله كان ذلك، كان بيني وبين رجل من اليهود أرض،فجحدني، فقدمته إلى النّبيّ صلى الله

---

١ . ابن تيمية، الفتاوى الكبرى ،تحقيق وتعليق وتقديم: محمد عبدالقادر عطا – مصطفى عبدالقادر عطا،دارالكتب العلمية، بيروت، ٢٣٨/١

٢ . زين الدين محمد المناوي ،فيض القدير شرح الجامع الصغير ، ط١ ، المكتبة التجارية الكبرى – مصر ١٣٥٦هـ ، ٩٥/٥

٣ . البخاري . الجامع الصّحيح . كتاب الحدود . باب الحدود كفّارة . ص ٧٤٨ . رقم ٤٤١١

٤ . البخاري . الجامع الصّحيح . كتاب الدّيات . باب سؤال القاتل حتّى يقرّ . ص (١١٨٤ . ١١٨٥) . رقم ٦٨٧٦

عليه وسلم، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألك بيّنة، قلت: لا، قال: فقال لليهودي: احلف، قال: قلت: يا رسول الله، إذا يحلف ويذهب بمالي، فأنزل الله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلا } [آل عمران: ٧٧] إلى آخر الآية"[١].

ب – مبدأ المساواة:

جعل الإسلام المرأة مساوية للرّجل في النّسب البشري،والمعنى الإنساني،والعمل والجزاء، وفي التكريم والتشريف، والتكاليف الشّرعية في العقيدة،والعبادات والمعاملات، لا فرق بين المرأة والرّجل في ذلك، فكلّ منهما يتحمّل المسؤولية المنوطة به،قال تعالى:"وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" [٢].

وصارت النّساء قدوات للنّاس في الصّلاح والتقوى،كخديجة بن خويلد أمّ المؤمنين التي كانت أوّل من آمن بالرسّولε من النّساء،وسميّة أمّ عمار بن ياسر أوّل شهيدة في الإسلام،والرميصاء أم سليم التي اشترطت على أبي طلحة أن يترك الكفر ويسلم،ورضيت بإسلامه مهرا لها،وفاطمة بنت الخطّاب التي كان لها الأثر الكبير في إسلام عمر بن الخطّاب رضي الله عنه الذي كان إسلامه خيرا وبركة على المسلمين،وغير هؤلاء النّسوة،الكثيرات ممن كنّ رائدات في أعمال عظيمة في التاريخ الإسلامي.

وفي ظلّ الإسلام الذي كان يدعو إليه النّبيﷺ صار بإمكان المرأة أن تختار شريك حياتها وتتصرّف بمالها كما تشاء،وهي في عصمة زوجها، وتجير الخائف المهدّد بالقتل، وتؤمّنه على حياته، ويحترم جوراها،ولو كان لمشرك، وقد أجارت زينب بنت رسول الله ﷺ زوجها المشرك أبا العاص بن الرّبيع ،وكانت قد فارقته، فقبل الرّسولﷺ جوارها[٣].

ويوم فتح مكّة أجارت أمّ هانئ أخت عليّ ابن هبيرة، فجاء علي ليقتله،فمنعته،وشكته إلى رسول اللهﷺ،فأقرّ جوارها[٤].

---

١ . البخاري . الجامع الصّحيح . كتاب الخصومات . باب كلام الخصوم بعضهم في بعض . ص ٣٨٨ . رقم ٢٤١٦

٢ . سورة التوبة ٧٠

٣. الحاكم، المستدرك على الصّحيحين، كتاب معرفة الصّحابة، باب ذكر زينب، ٤٩/٤ . رقم ٦٨٤٣ . وقال الشيخ الألباني:"صحيح" . انظر: الألباني، السّلسلة الصّحيحة ٢٠/٧.

٤. البخاري، الجامع الصّحيح، كتاب الصّلاة، باب الصّلاة في الثّوب الواحد، ص (٦٣، ٦٤) . رقم ٣٥٧.

وإنّه لمن العجب العجاب أن يتّهم الإسلام بظلم المرأة وبتحقيرها،وإهانتها،وهضم حقوقها،وهو الذي رفع الأغلال التي كانت عليها،وحرّرها من الاستعباد،ورفع من شأنها، وبوأها مكانة رفيعة،ومنزلة عالية،وكرّمها أيّما تكريم، وجعل حقوقها فريضة شرعية.

إنّ الحقيقة قد يضعف صوتها،وتحجب نورها الشّبهات والأباطيل،ولكنّها لاتموت،فهي سرعان ماتنفض غبار الأوهام عنها،وتنهض من جديد،وهاهو المستشرق الفرنسي جاك ريسلر يصحّح خطأ بني قومه في نظرتهم لموقف الإسلام من المرأة فيقول:لقد وضعت المرأة على قدم المساواة مع الرّجال،في القضايا الخاصّة بالمصلحة فأصبح في استطاعتها أن ترث وأن تورث،وأن تشتغل بمهنة مشروعة"[١].

المبحث الثاني: سيرة الرّسولﷺ مع أزواجه

عامل النّبيّ ε النّساء بكلّ لطف وحنان،وسمّاهنّ القوارير، لرقتهنّ ونعومتهنّ وصفائهنّ وضعفهنّ روى البخاري بسنده عن أنس بن مالك قال كان رسول الله ﷺفي سفر ،وكان معه غلام له أسود يقال له أنجشة يحدو،فقال له رسول الله εويحك يا أنجشة،رويدك بالقوارير"[٢].

وهذه زوجه أمّ البنات خديجة بنت خويلد رضي الله عنها:[٣]،عاش معها النّبي ﷺأكثر من ربع قرن،ولم يتزوّج في حياتها بغيرها وهو في عنفوان شبابه،لمكانتها في قلبه وحبّه الشّديد لها،وهي أفضل نسائه وأمّ بناته،ولما ماتت رضي الله عنها كان قد بلغ الثالثة والخمسين سنة تقريبا،وقد بدأت حياة التعدّد عند رسول الله ﷺبعد وفاتها ومع بداية حروبه مع المشركين.

وقد كانت معاملته لها في غاية الرقّة واللّطف والشّفقة والحنان،وبعد سنين طويلة من وفاتها يؤسر ابن أختها أبو العاص بن الرّبيع في غزوة بدر،وهو لايزال على شركه،وكان الرّسولﷺ قد زوّجه ابنته زينب رضي الله عنها،فترسل زوجه لفدائه بمال فيه قلادة أهدتها لها أمّها خديجة ليلة بنائها،فلمّا رآها النّبي εعرف أنّها لزوجه المتوفّية خديجة رضي الله عنها التي كانت معه في وقت الشدّة تواسيه بمالها وحنانها وهاجت في نفسه الذكريات الجميلة،ورقّ لها رقّة شديدة،وقال لأصحابه:"إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها

---

١ . جاك ريسلر . الحضارة العربية . تعريب د/خليل أحمد خليل . منشورات عويدات . بيروت . باريس . ١٩٩٣م . ص ١٩٠

٢ . البخاري . الجامع الصّحيح . كتاب الأدب . باب ماجاء في قول الرّجل ويلك . ص ١٠٧٤ . رقم ٦١٦١

٣ . سيّدة ذات مال وحسب ونسب في قومها،كان النّبيّε يتاجر لها في مالها،فأعجبت بأخلاقه وأمانته،وكانت أرملة فرغبت فيه،وهي في سنّ الأربعين والنّبيε في سنّ الخامسة والعشرين فتزوّجها وهي أوّل زوجاته،توفّيت قبل الهجرة بسنة ونصف"، انظر ابن كثير . الفصول في سيرة الرّسول . مؤسسة علوم القرآن ومكتبة التراث . ط٣ . ١٤٠٣هـ . ص ٢٤٣

وتردّوا عليها الذي لها فافعلوا"،فقالوا: نعم يارسول الله" فأطلقوه وردّوا عليها الذي لها،وكان رسول الله ε أخذ عليه أو وعده أن يخلّي سبيل زينب إليه"[١].

بل إنّه كان يكرم صديقاتها ويرفق بهنّ،ويقول هذه كانت تأتينا أيّام خديجة،فعن عائشة قالت:جاءت عجوز إلى النّبي ε فقال لها:من أنت ؟قالت:جثامة المزنية،قال:بل أنت حنانة المزنية كيف أنتم ؟كيف حالكم ؟كيف كنتم بعدنا ؟قالت:بخير بأبي أنت وأمّي يارسول الله،قالت:فلمّا خرجت قلت:يارسول الله،تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال ؟فقال: ياعائشة إنها كانت تأتينا زمان خديجة،وإنّ حسن العهد من الإيمان"[٢].

وكان يثني عليها أحسن الثّناء،ويكثر من ذكرها حتّى تحرّكت غيرة عائشة رضي الله عنها،فقالت:ما غرت على أحد من نساء النّبي ﷺ ما غرت على خديجة،وما رأيتها ولكن كان النّبي ﷺ يكثر ذكرها،وربمّا ذبح الشّاة ثم يقطّعها أعضاء،ثمّ يبعثها في صدائق خديجة،فربمّا قلت له كأنّه لم يكن في الدّنيا امرأة إلاّ خديجة،فيقول إنهّا كانت وكان لي منها ولد"[٣].

وإذا زارته أختها هالة بنت خويلد،ذكّره صوتها بخير نسائه خديجة رضي الله عنها،وعاوده الحنين،وارتاع لذلك،روى البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة فارتاع لذلك فقال:اللّهم هالة"،قالت فغرت فقلت ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشّدقين هلكت في الدّهر قد أبدلك الله خيرا منها"[٤].

وكان من حسن معاملة النّبيّ ﷺ للنّساء أن يتزوّج الأرامل لحكم كثيرة منها: رحمة بهن،ولكفالة أيتامهنّ كما فعل مع المهاجرة أمّ المؤمنين سودة بنت زمعة رضي الله عنها، التي كانت من المؤمنات

---

١ . أبو داود . السّنن ،كتاب الجهاد ، باب في فداء الأسير بالمال ، ص٣٩٠ ، رقم٢٦٩٢ . وقال الألباني:"إسناده حسن". انظر الألباني ، إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السّبيل، ٤٣/٥ .

٢ . أحمد بن الحسين البيهقي . شعب الإيمان . تحقيق محمّد السعيد بسيوني زغلول . دار الكتب العلمية . بيروت . ط١ . ١٤١٠هـ ٥١٧/٦ . رقم ٩١٢٢ . قال الشيخ الألباني:"صحيح" . انظر الألباني . السّلسلة الصّحيحة . ٤٢٤/١ . رقم ٢١٦ . وقال الحاكم:"هذا حديث صحيح على شرط الشّيخين"،وقال الذّهبي:"على شرطهما وليست له علّة" . انظر الحاكم . المستدرك على الصّحيحين . كتاب الإيمان . ٦٢/١ . رقم ٤٠

٣ . البخاري . الجامع الصّحيح . كتاب مناقب الأنصار . باب تزويج النّبي خديجة وفضلها . ص٦٤١ . رقم ٣٨١٨

٤ . البخاري . الجامع الصّحيح . كتاب مناقب الأنصار . باب تزويج النّبي خديجة وفضلها . ص٦٤١ . رقم ٣٨٢١

المهاجرات إلى الحبشة فرارا من الفتنة في دينها، وكانت أرملة،فأشفق عليها النّبيﷺ وخاف عليها أن ترجع لأهلها المشركين فيشمتوا بها،ويذيقوها العذاب الأليم،فأراد النّبيﷺ أن يعوّضها خيرا ممّا فقدته،ويجبر كسر قلبها،ويرفع من شأنها، فوجد زواجه بها خير وسيلة لذلك،وهل تنتظر الأرملة شيئا أفضل ممّن يعيلها ويصون عرضها،وقد كانت امرأة مسنّة،وهبت ليلتها لعائشة رضي الله عنها،وهمّ النّبيّ بطلاقها ثمّ عدل عنه رحمة بها[١].

ثمّ تزوّج الفقيهة أمّ المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنهما،إكراما لأبيها أبي بكررضي الله عنه،وتوثيقا للصّلة بأفضل أصحابه وأحبّهم إليه،فهو أوّل رجل آمن به وصدّقه،وكان ثاني اثنين إذ هما في الغار،وهي المرأة الوحيدة التي تزوّجها النّبيّ ε بكرا،توفّيت سنة سبع أو ثمان وخمسين هجرية في أيّام معاوية رضي الله عنهما،وكانت فقيهة عاقلة فاضلة،حفظت سنّة النّبيّε ونقلتها للمسلمين،وقد أخبرت عن عطف الرّسول ورفقه بها فقالت: مارأيت أحدا أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ"[٢].

وكان الرّسول يسابقها فتسبقه ويسبقها،ويعطيها وقتا كافيا لتأخذ حظّها من التسلية واللّعب مع زميلاتها فتقول:"كنت ألعب بالبنات عند النّبي ﷺوكان لي صواحب يلعبن معي،فكان رسول الله ﷺإذا دخل يتقمَّعن منه فيسرّبهنّ إليّ فيلعبن معي"[٣].

بل إنّه كان يقضي معها وقتا طويلا، ويصبر عليها دون ملل،ويقدر لها قدرها من اللّهو،حتّى تكون هي التي تسأم روى البخاري بسنده عائشة رضي الله عنها قالت رأيت النّبيﷺ يسترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد حتّى أكون أنا التي أسأم،فاقدروا قدر الجارية الحديثة السّنّ الحريصة على اللّهو "[٤].

وقد كان النّبيّ يحبّها كثيرا،حتّى إنّه كان يشرب من موضع فمها،فتقول:"كنت أشرب وأنا حائض،ثمّ أناوله ε،فيضع فاه على موضع فِي فيشرب"[٥]،وكان يطيل الحديث معها ولايملّ منها

---

١ . تزوّجها عليه الصّلاة والسّلام بعد وفاة خديجة رضي الله عنها رحمة بها،توفّيت في آخر خلافة عمررضي الله عنه، انظر ابن كثير . الفصول في سيرة الرّسول . ص(٢٤٣ .٢٤٤)

٢ . مسلم . الجامع الصّحيح .كتاب الفضائل . باب رحمته εالصّبيان والعيال . ص ١٠٢٣ . رقم ٦٠٢٦

٣ . البخاري . الجامع الصّحيح .كتاب الأدب . باب الانبساط إلى النّاس . ص ١٠٦٨ . رقم ٦١٣٠

٤ . المصدر السابق .كتاب النّكاح . باب نظر المرأة إلى الحبش ونحوهم من غير ريبة . ص ٩٣٥ . رقم ٥٢٣٦

٥ . مسلم . الجامع الصّحيح .كتاب الحيض . باب جواز غسل الحائض رأس زوجها . ص ١٣٨ . رقم ٦٩٢

كحديث أبي زرع الذي قصّه عليها،وفيه أنّ مجموعة من النّسوة،وكان عددهنّ إحدى عشرة امرأة تعاهدن أن لايكتمن من أمر أزواجهنّ شيئا،فبدأت كلّ واحدة تصف زوجها وتعدّ شمائله،فكانت أمّ زرع أحسنهنّ وصفا لزوجها وتعدادا لنعمه عليها،وكانت عائشة رضي الله عنها تنصت إليه في هدوء وسكينة حتّى إذا فرغ من حديثه قال لها: كنت لك كأبي زرع لأمّ زرع"[١]،فقالت له: بأبي وأمّي أنت يارسول الله بل أنت خير إلي من أبي زرع"[٢].

وكان النّاس إذا أرادوا أن يهدوا إلى رسول الله ε انتظروا حتّى يكون في بيت عائشة فيهدون إليه فوجدت بقيّة نسائه شيئا في أنفسهنّ من هذا العمل،فذهبن إلى أمّ سلمة وأظهرن لها حسن نيّتهنّ في إرادتهن الخير كما تريده عائشة،وطلبن منها أن تكلّم رسول الله ﷺ فيأمر النّاس أن يهدوا له حيثما كان فكلّمت أمّ سلمة الله عنها رسول الله ε فأعرض عنها،ثمّ ذكرت له ذلك فلم يجبها،فلمّا كلّمته في الثّالثة قال لها:"يا أمّ سلمة لا تؤذيني في عائشة،فإنّه والله ما نزل عليّ الوحي وأنا في لحاف امرأة منكنّ غيرها"[٣]

وحين مرض النّبي ﷺجعل يدور في نسائه ويقول:أين أنا غدا ؟ أين أنا غدا ؟"حرصا على بيت عائشة،قالت عائشة: فلمّا كان يومي سكن"[٤].

وعندما أزف الرّحيل وحانت لحظة الوداع،توفّي ﷺ ورأسه مسندة إلى صدر عائشة رضي الله عنها،فعن الأسود قال ذكر عند عائشة أنّ النّبي ﷺأوصى إلى علي،فقالت من قاله؟لقد رأيت النّبيّﷺ وإنّي لمسندته إلى صدري،فدعا بالطست فانخنث فمات فما شعرت،فكيف أوصى إلى عليّ ؟"[٥].

ولما ترمّلت أمّ الأيتام هند بنت أبي أميّة رضي الله عنها،وكانت امرأة مسنّة،ذات أيتام،شديدة الغيرة،أبت الزّواج بعد وفاة زوجها،وكانت تقول من هو خير من أبي سلمة ؟ فتقدّم إليها الرّسولﷺ

١ . البخاري . الجامع الصّحيح . كتاب النّكاح . باب حسن المعاملة مع الأهل . ص ٩٢٦ . ٩٢٧ . رقم ٥١٨٩

٢ . البخاري . الجامع الصّحيح . كتاب المغازي . باب مرض النّبي ﷺووفاته . ص (٧٥٧ . ٧٥٨) . رقم ٤٤٥٩

٣ . المصدر السابق . كتاب فضائل أصحاب النّبي ﷺ باب فضل عائشة رضي الله عنها . ص ٦٣٤ . رقم ٣٧٧٥

٤ . البخاري . الجامع الصّحيح . كتاب فضائل أصحاب النّبيﷺ باب فضل عائشة رضي الله عنها . ص ٦٣٤ . رقم ٣٧٧٤

٥ . البخاري . الجامع الصّحيح . كتاب المغازي . باب مرض النّبي εووفاته . ص (٧٥٧. ٧٥٨). رقم ٤٤٥٩

فقالت ما مثلي تنكح فتزوّجها رحمة بها وبعيالها،توفيّت سنة ٦٠ هـ"[١]،وكانت تنفق على أيتامها،وتعطف عليهم،وتحرص على الأجر،وقد سألت النّبيّ ﷺعن الأجر في إنفاقها عليهم فقالت:يارسول الله هل لي أجر في بني أبي سلمة أنفق عليهم ولست بتاركتهم هكذا وهكذا إنّما هم بني،فقال نعم لك فيهم أجر ما أنفقت عليهم "[٢].

ولما توفيّ زوج الصوّامة القوّامة حفصة بنت عمر بن الخطاب من جروح أصابته يوم بدر،عرضها أبوها على أبي بكر وعثمان رضي الله عنهم فلم يبديا رغبتهما فيها،فذهب إلى النّبي ﷺ يشكو إليه حاله،فرقّ له قلب الحبيب المصطفى وقال له:تتزوّج من هو خير من أبي بكر وعثمان،وجبر النّبي ﷺقلب عمر وأدخل عليه السّرور وشرّفه بمصاهرته،وصار أمّا للمؤمنين،وكان عمر يعلم أنّه تزوّجها رحمة به،وقد طلّقها ثمّ راجعها فعن ابن عمر قال:"دخل عمر على حفصة وهي تبكي فقال لها:"وما يبكيك ؟لعلّ رسول الله ﷺطلّقك إن كان طلّقك مرّة ثمّ راجعك من أجلي،والله لئن طلّقك مرّة أخرى لا أكلّمك أبدا"[٣]،وعن قيس بن يزيد أنّ رسول الله ɛطلّق حفصة تطليقة،فأتاها خالاها عثمان وقدامة ابنا مظعون فقالت:"والله ما طلّقني عن شبع فجاء النّبي ﷺ فدخل فتجلببت،فقال النّبي ﷺ:"أتاني جبريل عليه السّلام فقال:"راجع حفصة فإنّها صوّامة قوّامة،وإنّها زوجتك في الجنّة"[٤]،توفيت رضي الله عنها سنة ٤٥هـ[٥].

---

١ . النّسائي . السّنن الكبرى . تحقيق د/عبد الغفار سليمان .كتاب عشرة النّساء . باب الحال التي يختلف فيه حال النّساء . دار الكتب العلمية . بيروت . ط١ . ١٩٩١م . ٢٩٣/٥ . رقم ٨٩٢٦ . وانظر ابن كثير . الفصول في سيرة الرّسول . ص (٢٤٥ . ٢٤٦) . وانظر صحيح ابن حبان .كتاب النّكاح . ذكر وصف تزويد المصطفى ﷺ أمّ سلمة . وقال شعيب الأرنؤوط:"إسناده حسن" . ٣٧٢/٩ . رقم ٤٠٦٥ . وقال الشّيخ الألباني:"وإسناده صحيح على شرط الشّيخين" . انظر الألباني . صحيح أبي داود . مؤسّسة غراس للنّشر والتوزيع . الكويت . ط١. ٢٠٠٢م . ٨١/٢

٢. مسلم . الجامع الصّحيح .كتاب الزّكاة . باب النّفقة والصّدقة على الأقربين والزّوج والأولاد . ص ٤٠٥ . رقم٢٣٢٠

٣ . أحمد بن علي أبو يعلى الموصلي . المسند . تحقيق حسين سليم أسد . الأحاديث مذيّلة بأحكام حسين سليم أسد عليها . دار المأمون للتراث . دمشق . ط١ . ١٩٨٤م . ١٥٩/١ . رقم ١٧٢ . وقال:"رجاله رجال الصّحيح". وقال الألباني:"صحيح" . انظر الألباني . السّلسلة الصّحيحة . ١٥/٥ . رقم ٢٠٠٧ .

٤ . الطّبراني . المعجم الكبير . تحقيق حمدي بن عبدالمجيد السّلفي . مكتبة العلوم والحكم . الموصل . ط٢ . ١٩٨٣م . ٣٦٥/١٨ . رقم ١٥٦٤٤ . قال الهيثمي:"رواه الطّبراني ورجاله رجال الصّحيح" . انظر الهيثمي . مجمع الزّوائد .كتاب المناقب . باب فضل حفصة بنت عمر بن الخطّاب . ٣٩٣/٩ . رقم ١٥٣٣٤ . وقال الألباني :" حسن" . انظر الألباني . السّلسلة الصّحيحة . ٦/٥ . رقم ٢٠٠٧م

٥ . انظر: ابن كثير . الفصول في سيرة الرّسول . ص ٢٤٤

ثمّ تزوّج ﷺ المنفقة زينب بنت جحش رضي الله عنها،وكان اسمها برّة فسمّاها الرّسول ﷺ زينب[١]،وهي من علية نساء قريش ذات نسب وحسب وجمال،هاجرت إلى المدينة،وكانت كريمة فاضلة،تقيّة ورعة،صوّامة قوّامة،واصلة للرّحم صَنَاعَ اليدين،تدبغ وتخرز وتسارع إلى مساعدة الفقراء والمحتاجين،وتكثر من الصّدقات حتّى غدت مثالا عظيما في الإنفاق في سبيل الله تعالى،وقد لقّبت بألقاب منها:مفزع الأيتام،أمّ المساكين وملجأ الأرامل حفظت الكثير من أحاديث النّبي ﷺ،وروى عنها العديد من الصّحابة والصّحابيات،وهي تضاهي عائشة رضي الله عنها في المنْزلة عند رسول الله ﷺ،فعن عائشة رضي الله عنها قالت:"...زينب بنت جحش زوج النّبي ﷺ وهي التي كانت تساميني منهن في المنْزلة عند رسول الله ε،ولم أر امرأة قط خيرا في الدّين من زينب وأتقى لله وأصدق حديثا،وأوصل للرّحم،وأعظم صدقة،وأشدّ ابتذالا لنفسها في العمل الذي تصدّق به وتقرّب به إلى الله تعالى ما عدا سَوْرَةً من حدّ[٢] كانت فيها تسرع منها الفيئة "[٣]،وقد أجمعت كتب السّير على أنّها أوّل أزواج النّبي ﷺ لحوقا به،توفّيت سنة ٢٠هـ في خلافة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه،وهو من صلّى عليها[٤]،روى مسلم بسنده عن عائشة أمّ المؤمنين قالت قال رسول الله ε:"أسرعكن لَحَاقا بي أطولكن يدا،قالت فكنّ يتطاولن أيّتهنّ أطول يدا،قالت فكانت أطولنا يدا زينب لأنها كانت تعمل بيدها وتصدّق"[٥] وروى الحاكم بسنده عن عمرة عن عائشة رضي الله عنها قالت:قال رسول الله ﷺ لأزواجه:"أسرعكنّ لحوقا بي أطولكنّ يدا،قالت عائشة:فكنّا إذا اجتمعنا في بيت إحدانا بعد وفاة رسول الله ﷺنمدّ أيدينا في الجدار نتطاول فلم نزل نفعل ذلك حتّى توفّيت زينب بنت جحش زوج النّبي ε،وكانت امرأة قصيرة ولم تكن

١ . انظر: مسلم . الجامع الصّحيح .كتاب الآداب . باب استحباب تغيير الاسم . ص ٩٥٥ . رقم ٥٦٠٨

٢. قال النّووي:"سورة من حد بفتح الحاء بلا هاء وفي بعضها من حده بكسر الحاء وبالهاء،وقولها سورة هي بسين مهملة مفتوحة ثم واو ساكنة ثم راء ثم تاء والسورة الثوران وعجلة الغضب،وأما الحدّة فهي شدّة الخلق وثورانه،ومعنى الكلام أنّها كاملة الأوصاف إلاّ أنّ فيها شدّة خلق وسرعة غضب تسرع منها،الفيئة بفتح الفاء وبالهمز وهي الرّجوع أي اذا وقع ذلك منها رجعت عنه سريعا ولا تصرّ عليه" . انظر النّووي . المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجّاج . دار إحياء التراث العربي . بيروت . ط٢ . ١٣٩٢هـ . ٢٠٦/١٥

٣. مسلم . الجامع الصّحيح .كتاب فضائل الصّحابة . باب في فضل عائشة رضي الله عنها . ص(١٠٧١ . ١٠٧٢) . رقم ٦٢٩٠

٤. انظر أحمد بن عمرو أبو بكر الشّيباني . الآحاد والمثاني . تحقيق د.باسم فيصل أحمد الجوابرة . دار الرّاية . الرّياض ط١ . ١٩٩١م . ٢٥٢/٥ وانظر ابن حزم . جوامع السّيرة . تحقيق إحسان عبّاس . دار المعارف . مصر . ط١. ١٩٠٠م . ص٣٤

٥. مسلم . الجامع الصّحيح .كتاب فضائل الصّحابة . باب من فضائل زينب أمّ المؤمنين رضي الله عنها . ص ١٠٧٩ . رقم ٦٣١٦ ٦٣١٦

أطولنا فعرفنا حينئذ أنّ النّبي ﷺإنّما أراد بطول اليد الصّدقة ،قال: "وكانت زينب امرأة صنّاعة اليد،فكانت تدبغ وتخرز وتصدّق في سبيل الله عزّ وجلّ"[١].

وهي ابنة عمّة الرّسول ﷺ،والمرأة الوحيدة التي تزوّجها من نساء أقاربه،وقد أولم عليها النّبي ﷺأكثر وأفضل ممّا أولمه على سائر نسائه،فعن ثابت قال:ذكر تزويج زينب بنت جحش عند أنس فقال:"مارأيت النّبي εأولم على أحد من نسائه ما أولم عليها،أولم بشاة"[٢]،فقال ثابت البناني بما أولم ؟ قال أطعمهم خبزا ولحما حتّى تركوه"[٣]،وعند زواجه بها نزلت آية الحجاب،فعن أنس ابن مالك قال:"أنا أعلم النّاس بهذه الآية آية الحجاب،لمّا أهديت زينب بنت جحش رضي الله عنها إلى رسول الله ﷺكانت معه في البيت صنع طعاما ودعا القوم فقعدوا يتحدّثون فجعل النّبي ﷺيخرج ثمّ يرجع وهم قعود يتحدّثون فأنزل الله تعالى"يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ "إلى قوله"مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ"[٤]. فضرب الحجاب وقام القوم"[٥].

وقد رويت في زواج الرّسولﷺ بها روايات واهية مدسوسة،اتخذت ذريعة للطّعن فيه،تنعته بالهائم الولوع إذ زارها في بيتها في غياب زوجها فسلبته بجمالها،وتعلّق قلبه بها،فدفع زوجها لتطليقها كي تخلص له،وقد فنّد الدكتور محمّد أبو شهبة هذه الشّبهة،بأمور منها: أنّها ابنة عمّه،وربيت على عينه، وهو الذي خطبها لمولاه زيد،فتمنّعت حتّى نزل الوحي أن لاخيرة لأحد بعد قضاء الله ورسوله،فلو كان يريدها لنفسه،فإشارة منه كافية لأن يقدّمها له أهلها ومامملكت، لا أن يسكت حتّى يجني جناها ويقطف زهرتها رجل مولى له،ثمّ بعد ذلك يرعى حيث رعى"[٦].

والحقيقة أنّ الله تعالى أمره بالزّواج بها لحكمة تشريعية،وهي إبطال بدعة التبنيّ،وقد كان الأمر ثقيلا على النّبيّﷺ يخشى أن يتحدّث النّاس فيه،ولكنّه أمام الأمر الإلهي ليس له إلاّ الامتثال،فعن أنس قال:"جاء زيد ابن حارثة يشكو،فجعل النّبي εيقول اتّق الله وأمسك عليك زوجك،قال أنس لوكان

---

١ . الحاكم . المستدرك على الصّحيحين .كتاب معرفة الصّحابة . باب ذكر زينب بنت جحش رضي الله عنها . ٤/٢٦ . رقم ٦٧٧٦ . وقال :" هذا حديث صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه"،وعلّق عليه الذّهبي فقال:" على شرط مسلم".

٢. البخاري . الجامع الصّحيح .كتاب النّكاح . باب الوليمة ولو بشاة . ص ٩٢٤ . رقم ٥١٧١

٣. مسلم . الجامع الصّحيح .كتاب النّكاح . باب زواج زينب بنت جحش . ص ٦٠٣ . رقم ٣٥٠٤

٤. سورة الأحزاب . الآية ٥٣

٥. البخاري . الجامع الصّحيح .كتاب تفسير القرآن . باب قوله:"لاتدخلوا بيوت النّبي إلاّ أن يؤذن لكم.." . ص ٨٤٢ . رقم ٤٧٩٢ ٤٧٩٢

٦ . د/ محمّد أبو شهبة . السّيرة النّبوية في ضوء القرآن والسنّة . ٢/ ٣٠٠

رسول الله ﷺكاتِما شيئا لكتم هذه،قال فكانت زينب تفخر على أزواج النّبي εتقول زوّجكنّ أهاليكنّ وزوّجني الله تعالى من فوق سبع سموات"،وعن ثابت"وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ"[١] نزلت في شأن زينب وزيد بن حارثة "[٢].

ثمّ تزوّج المباركة جويرية بنت الحارث رضي الله عنها،حيث كانت من عائلة كريمة،وبيتها من أشرف بيوتات العرب،وقعت سبيّة في غزوة بني المصطلق،فأعتقها الرّسولε رحمة بها وإكراما لها،وخيّرها فاختارت الزّواج به،وكانت يمنا وبركة على قومها،حيث أعتق الصّحابة الكرام كلّ الأسرى الذين وقعوا في أيديهم من قومها بعد أن صاروا أصهار الرّسولﷺ،إذ لم يكن هدفهم من القتال الطّمع في متاع الحياة الدّنيا،بل إخراج النّاس من الظّلمات إلى النّور،وتيسير لهم سبيل الوصول إلى الحقّ المبين،قالت عائشة رضي الله عنها:فما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها"[٣]،وكان اسمها برّة فسمّاها الرّسول εجويرية،توفّيت سنة ٥٠هـ[٤]

وتزوّج أمّ المساكين زينب بنت خزيمة رضي الله عنها،وكانت تدعى أمّ المساكين لكثرة صدقاتها على المعوزين،وإحسانها إليهم،ورحمتها إيّاهم،ورقّتها عليهم،وكانت مطلّقة،ثمّ أرملة شهيد،فتزوّجها الرّسولε رحمة بها،ولم تمكث عنده إلاّ ثلاثة أشهر حتّى توفّيت"[٥]،ثمّ المهاجرة أمّ حبيبة رملة بنت أبي سفيان رضي الله عنها،تزوّجها نبيّ الرّحمة،وأبوها لايزال من أشدّ أعدائه،لأنّه لايعرف الحقد والانتقام،فهو جاء رحمة للعالين،وكانت قد هاجرت رضي الله عنها مع زوجها عبيد الله بن جحش إلى الحبشة،فتنصّر ومات في مرضه،فخطبها النّبي ﷺتكريما لها على هجرتها،وحماية لها من الضّياع في بلاد الغربة،وقد أمهرها النّجاشي عن الرّسول ﷺأربعة آلاف درهم،وجهّزها وأرسل بها إليه،روى الحاكم بسنده عن أمّ حبيبة:أنّها

---

١. سورة الأحزاب . الآية٣٧

٢. البخاري . الجامع الصّحيح .كتاب التوحيد . باب وكان عرشه على الماء . ص (١٢٧٦ .١٢٧٧) . رقم ٧٤٢٠

٣ . ابن حبّان . صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان . تحقيق شعيب الأرنؤوط .كتاب النّكاح . ذكر السّبب الذي من أجله تزوّج رسول الله εجورية بنت الحارث .٣٦٢/٩ . وعلّق عليه شعيب الأرنؤوط فقال:"إسناده قوي". وقال الألباني: "إسناد حسن" . انظر الألباني . إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السّبيل . المكتب الإسلامي . بيروت . ط٢ . ١٩٨٥م . ٣٨/٥

٤ . انظر: مسلم ، الجامع الصّحيح .كتاب الآداب . استحباب تغيير الاسم . ص٩٥٤ . رقم ٥٦٠٦ ،وابن كثير . الفصول في سيرة الرّسول . ص ٢٤٧

٥ . انظر: أحمد بن الحسين أبو بكر البيهقي ،دلائل النبوة ،تح:د/ عبد المعطي قلعجي ،ط١، دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث للتراث ١٩٨٨م ، ١٥٩/٣ ، وانظر: ابن كثير، السيرة النبوية ، تح: مصطفى عبد الواحد ، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت – لبنان١٩٧٦م ، ١٧٣/٣

كانت تحت عبيد الله بن جحشف،فمات بأرض الحبشة،فزوّجها النّجاشي النّبيεوأمهرها عنه أربعة آلاف،وبعث بها إلى رسول اللهﷺمع شرحبيل بن حسنة[١]،وبعد أن أصبحت أمّا للمؤمنين،ورأت المعاملة الحسنة التي لا مثيل لها،والخير الذي أصابها بزواجها من الرّسولﷺ،أحبّت أن تشرك أختها فيه،فقالت قلت:"يا رسول الله انكح أختي بنت أبي سفيان،قال وتحبّين ذلك؟قلت نعم لست لك بِمُخْلِيَةٍ،وأحبّ من شاركني في الخير أختي،فقال إنّ ذلك لا يحلّ لي"[٢] .

ثم تزوّج الصّادقة صفيّة بنت حييّ رضي الله عنها،وكانت من بني قريظة،قتل عنها زوجها فوقعت في السّبي،فأعتقها الرّسولε وخيّرها،فاختارت الزّواج به،توفّيت سنة ٥٠ أو ٥٢هـ"وقد كان الرّسول εفي معاملته لها المثل الأعلى للأزواج،وكان من أمر تلطّفه بها عجباً،حتّى إنّه كان يجلس عند بعيره فيضع ركبته،وتضع صفيّة رضي الله عنها رجلها على ركبته حتّى تركب البعير[٣]،وكان الرّسول εينتصر لها كثيرا،ثمّ تزوّج الواهبة ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها،وكانت مطلّقة ثمّ أرملة،وكانت أختها أمّ الفضل تحت العبّاس رضي الله عنه،فجعلت أمرها إليه،فعرضها على الرّسول ﷺيوم صلح الحديبيّة،فرأى أن يقبلها إكراما لعمّه،وكانت آخر أزواجه،وقيل إنّها التي وهبت نفسها للنّبي ﷺ،وذلك أنّ خطبة النّبيﷺ انتهت إليها وهي على بعيرها، فقالت: البعير وما عليه لله ولرسوله،توفّيت رضي الله عنها سنة ٥١ هـ"[٤].

إنّ تاريخ البشرية يشهد أنّ بيت الرّسول محمّد εكان صورة رائعة للمجتمع الإنساني، اجتمعت فيه نسوة يختلفن في الأعمار والطّبائع،والأنساب والأحساب والجمال والقبيلة والأوطان،ومع كلّ هذا التعدّد المتنوّع، لم يساور إحداهنّ شكّ في نبوّته،ولم تشك منه امرأة أبدا،أو تذمّرت من العيش معه في حياته أو بعد مماته،بل كنّ في غاية النّعيم والسّعادة مع التقشّف وخشونة العيش،وإنّ العاقل ليتساءل كيف استطاع أن يوفّق بينهنّ جميعا،ويقوم بحقوقهنّ أحسن قيام،ويرضيهنّ مع اختلاف ميولهنّ وصعوبة ترضيتهنّ،وشدّة أعباء الرّسالة،وثقل التكاليف التي يتحمّلها،واهتمامه بقضايا النّاس وشؤونهم،وصعوبات

---

١ . الحاكم . المستدرك على الصّحيحين .كتاب النّكاح . ١٩٨/٢ . رقم ٢٧٤١،وقال :" هذا حديث صحيح على شرط الشّيخين و لم يخرجاه"،وعلّق عليه الذّهبي بقوله:" على شرط البخاري ومسلم".

٢ . البخاري . الجامع الصّحيح .كتاب النّفقات . باب المراضع من المواليات وغيرهنّ . ص (٩٥٩ . ٩٦٠) . رقم ٥٣٧٢ – توفّيت رضي الله عنها سنة ٤٤ هـ" انظر ابن هشام . السّيرة النّبوية ٢٩٣/٤ . وانظر ابن كثير . الفصول في سيرة الرّسول . ص (٢٤٧ . ٢٤٨)

٣ . البخاري . الجامع الصّحيح .كتاب البيوع . باب هل يسافر بالجارية قبل أن يستبرئها . ص ٣٥٦ . رقم ٢٢٣٥

٤ . انظر ابن هشام . السّيرة النّبوية . ٢٠/٥ . ٦٠/٦

الحياة ومشكلاتها،حتّى إنّ بعض أصحابه كان يريد أن يعرف ماذا كان يصنع النّبيّ ﷺ داخل بيته،فتجيبهم عائشة رضي الله عنها فتقول:"كان في مهنة أهله،فإذا حضرت الصّلاة،قام إلى الصّلاة"[١].

وتعدّد أزواجه كان لحكم اجتماعية، وتعليمية وتشريعية وسياسية،وقد كنّ شاهدات على صدق نبوّته،فلو كانت له زوجة واحدة فقط،لربّما قيل إنّها قد تواطأت معه على الكذب،كما تواطأت سجّاح مع مسيلمة الكذّاب،وهذا التعدّد يدفع هذا الاحتمال ويبطله،وهو من الشّواهد الخفيّة على صدق الرّسول ε،إذ نساؤه أبصر وأعلم بخبايا نفسه وأسراره من أعين النّاس.

وقد كان يقوم اللّيل حتّى تتفطّر قدماه،ويصوم ويواصل حتّى كأنّه لايأكل أبدا،وقد تبيّن أنّ كلّ أزواجه ماعدا عائشة كنّ ثيّبات وأرامل،وفيهنّ المسنّة التي تنازلت عن حقّها لغيرها،ولم يعدّد إلاّ في سنّ الشّيخوخة ومع بداية حروبه مع المشركين،فهل هذه سيرة متصاب بالنّساء ؟أم سيرة مربّ ومعلّم؟ .

يقول عبّاس محمود العقّاد رحمه الله:"قال لنا بعض المستشرقين إنّ تسع زوجات لدليل على فرط الميول الجنسية قلنا إنّك لا تصف السيّد المسيح بأنه قاصر الجنسية لأنّه لم يتزوّج قطّ،فلا ينبغي أن تصف محمّدا بأنّه مفرط الجنسية لأنّه جمع بين تسع نساء"[٢].

وهذه الأسباب وغيرها تفنّد مزاعم الذين اعتبروا تعدّد أزواج الرّسول ﷺ دليلا على إفراطه في الشّهوات وتصابيه بالنّساء،وميله للّهو والمجون،وتبيّن أنّهم بعيدون كلّ البعد عن الحقيقة،فسيرته مع أزواجه كافية في ردّ شبهاتهم،يقول الشّيخ أبو الحسن النّدوي:"ولم تكن حياته معهنّ حياة ترف ورفاهية،وتوسّع في المطاعم والمشارب،وخفض العيش،وتلك غاية تعدّد الزّوجات في نظر كثير من النّاس،بل كانت حياة زهد وتقشّف،وإيثار وقناعة،لايطيقها أعظم الرّجال وكبار الزهّاد في القديم والحديث...وكنّ يرافقنه في الحروب والغزوات،فيداوين الجرحى،ويمرّضن المرضى،ويشرن بالخير ويواسين في الشدّة،وبهنّ قام نحو ثلث الدّين،ممّا يتعلّق بحياته المنْزلية والعشرة،وكثير من الأحكام تعلّمها المسلمون منهن،وحفظوه ونشروه"[٣].

إنّ خطأ الذين طعنوا في تعدّد زوجات الرّسولε، لم يكونوا منصفين في تقرير الحقيقة،فهم قد جعلوا تصوّراتهم وأعراف مجتمعاتهم مقاييس،يحاكمون إليها بقيّة المجتمعات البشريّة،وقد نبّه إلى هذا الخطأ الجسيم الإنجليزي السيّد بودلي فقال:إنّه لاداعي إلى قياس حياة محمّد الزّوجية بالمقاييس الغربية،ولاالحكم عليها من وجهة نظر التقاليد والقوانين التي سنّتها المسيحيّة في الغرب،فلم يكن أولئك الرّجال العرب

١ . البخاري . الجامع الصّحيح . كتاب الأدب . باب كيف يكون الرجل في أهله . ص ١٠٥٥ . رقم ٦٠٣٩

٢ . العقّاد . عبقرية محمّد . ص ١٠٢

٣ . أبو الحسن النّدوي . السّيرة النّبوية . طبعة قطر . ص (٤٧٥ . ٤٧٦)

غربيّين ولامسيحيّين،إنّما نشأوا في بلاد وفي عصر كان يسود عليه نظامهم الخلقي الخاص،ورغم كلّ ذلك لامبرّر لتفضيل النّظام الخلقي الأمريكي أو الأوروبيّ على النّظام الخلقي العربيّ،إنّ الغربيّين لايزالون في حاجة إلى بحث دقيق وتمحيص كبير لتفضيل نظامهم الخلقي،وطريقة حياتهم على غيرها،فعليهم أن يتجنّبوا الطّعن في ديانات أخرى ومدنيات أخرى"[١].

وقد عرف العرب نظام تعدّد الزّوجات مطلقا من غير قيود،وكانوا يتباهون به،لأنّه في نظرهم من فحولة الرّجل،فجاء الإسلام وقيّده بأربع نسوة،فعن ابن عمر قال:أسلم غيلان الثقفي وعنده عشر نسوة،فقال رسول الله ε:أمسك أربعا وفارق سائرهن"[٢].

يقول جاك ريسلر:"وفي الحقّ أنّ تعدّد الزّوجات بتقييده الانزلاق مع الشّهوات الجامحة،قد حقّق بهذا التشريع تماسك الأسرة،وفيه مايسوّغ عقوبة الزّوج الزّاني"[٣].

ويقول الدكتور نظمي لوقا:وليس من الإنصاف في شيء أن نقيس هذا الحضّ بمقياس زماننا وآدابنا،بل بمقياس زمان الدّعوة وآدابه،ففي تلك البيئة الصّحراوية الجاهلية كان التعدّد مطلقا من غير قيد،ومن هذا نفهم سرّ قول القرآن"مثنى وثلاث ورباع"[٤]،بلهجة من يعدّد للطّامع المباح بأسلوب يوحي بالتوسّع،وهو يرمي إلى التضييق كلّ التضييق "[٥].

ولم يكن عطوفا على نسائه،رقيق القلب معهنّ فقط،بل كانت هذه أخلاقه معهن ومع بناته ومع النّساء جميعا،فعندما تأتيه ابنته فاطمة رضي الله عنها،يرحّب بها ترحيبا كبيرا،ثمّ يقبّلها ويأخذ بيدها،ويجلسها في مكانه الذي يجلس فيه[٦]،ويستقبل مرضعته حليمة السّعدية بفرح شديد،ويكرمها غاية الإكرام،ويظهر لها من المودّة والعطف ما لا مثيل له،حتّى أنّ العقّاد اعتبر عطف النّبيّ ﷺعلى مرضعته أجمل ماكتب في سجلّ المودّة الإنسانية فقال:"وليس في سجّل المودّة الإنسانية أجمل ولا أكرم من حنانه

---

١ . مولانا محمّد علي . حياة محمّد . ص (٢٠٢ . ٢٠٣) . ترجمة الشّيخ أبي الحسن النّدوي في كتابه السّيرة النّبوية . طبعة قطر . ص ٤٩٧

٢ . محمّد بن حبّان البستي . صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان . تحقيق شعيب الأرنؤوط . كتاب النّكاح . باب نكاح الكفّار . ٤٦٥/٩ . رقم ٤١٥٧ . وعلّق عليه شعيب الأرنؤوط فقال:"رجاله ثقات رجال الشّيخين"

٣ . جاك ريسلر . الحضارة العربية . ص ١٩٠

٤. سورة النّساء . الآية ٣

٥ . نظمي لوقا . محمد الرّسالة والرّسول . ص ١٠٥

٦ . البخاري . الأدب المفرد . تحقيق فؤاد عبد الباقي . دار البشائر الإسلامية . بيروت . ط٣ . ١٩٨٩م . ص ٣٢٦ . رقم ٩٤٧ . قال الألباني: صحيح" . انظر الألباني . صحيح الأدب المفرد للبخاري . دار الصدّيق . ط١ . ١٤٢١هـ . ص ٣٦٧

على مرضعته حليمة،ومن حفاوته بها وقد جاوز الأربعين،فيلقاها هاتفا بها: أمّي أمّي ويفرش لها رداءه،ويمسّ ثديها بيده،كأنّه يذكر ما لذلك الثّدي عليه من جميل،ويعطيها من الإبل والشّاه ما يغنيها في السّنة الجدباء"[١].

وجعل معاملة البنات بلطف والإحسان إليهنّ،وتربيتهنّ تربية مستقيمة، منجاة للإنسان من النّار،وقد رأت عائشة رضي الله عنها امرأة تعطف على بنتيها فقالت:"جاءتني امرأة معها ابنتان تسألني،فلم تجد عندي غير تمرة واحدة فأعطيتها فقسمتها بين ابنتيها،ثمّ قامت فخرجت،فدخل النّبيεفحدّثته،فقال من يلي من هذه البنات شيئا،فأحسن إليهنّ،كن له سترا من النّار"[٢].

وفي حجّة الوداع كان يوصي أمّته بالنّساء خيرا، فقال:"ألاَ واستوصوا بالنّساء خيرا،فإنّما هنّ عوان عندكم،ليس تملكون منهنّ شيئا غير ذلك،إلاّ أن يأتين بفاحشة مبيّنة "[٣]،وفي اللّحظات الأخيرة التي كان يفارق فيها الحياة، كان يضع رأسه على صدر زوجه عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها.

وقد اعترف المستشرق جان ليك بحسن معاملة النّبي ﷺ للمرأة،وأنّه كان رحمة لها فقال:" ولقد كان محمّد رحمة لجنس النّساء الذي كان يعامل كالأمتعة والأثاث لا أكثر،وذلك في جميع الدّنيا ومن قبل كلّ دين من الأديان،وكلّ نظام اجتماعي،فهلمّوا الآن نقول بأعظم الإخلاص والتلهّف والابتهال:اللّهمّ صلّي على محمّد،وعلى أتباعه ومحبّيه أجمعين"[٤].

المبحث الثالث: حكمته في معالجة المشكلات الأسرية

المطلب الأوّل: معالجة كفران الإحسان

من أراد تقويم طبيعة المرأة على الطّريقة،أبت إلاّ انكسارا،ومن اختار صحبتها في الحياة،صحبها على عوج فيها،ولايعني هذا انتقاص قدر النّساء والإساءة إليهنّ،والتفريط في نصحهنّ،بل ينبغي دوما

---

١. العقّاد . عبقرية محمّد . ص (٧٩ . ٣٢٦)

٢ . البخاري . الجامع الصّحيح .كتاب الأدب . باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته . ص ١٠٤٩ . رقم ٥٩٩٥

٣ . الترمذي . الجامع .كتاب الرّضاع . باب ماجاء في حقّ المرأة . ص ٢٨٢ . رقم ١١٦٣ . وقال:"هذا حديث حسن صحيح" . وقال الألباني:"حسن" . انظر. جامع الترمذي . تحقيق أحمد محمّد شاكر وآخرون . الأحاديث مذيّلة بأحكام الألباني عليها . دار إحياء التراث العربي . بيروت . ٤٦٧/٣ . رقم ١١٦٣ .

٤ . نخبة من العلماء . الإسلام والمستشرقون . عالم المعرفة . جدّة . ط١ . ١٩٨٥م . ص (٣٣٢ . ٣٣٣)

تذكّر طبيعتهنّ التي يقول فيها الرّسولﷺ:المرأة كالضّلع،إن أقمتها كسرتها،وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج"[١].

فاستحضار هذه الطّبيعة يزوّد الأزواج بالصّبر عليهنّ،والعفو عنهنّ،والرّفق بهنّ،ويديم العشرة الزّوجية ويحفظ ميثاقها،ويقيها السّقوط والانكسار،وقد كان الصّحابة رضي الله عنهم شديدي الحذر في التعامل مع نسائهم يتّقون الكلام معهنّ،مخافة أن ينزل فيهم شيء من الوحي،يقول ابن عمر رضي الله عنه: "كنّا نتّقي الكلام والانبساط إلى نسائنا على عهد النّبي ﷺ هيبة أن ينْزل فينا شيء فلمّا توفّي النّبي ﷺ تكلّمنا وانبسطنا"[٢].

والزّوج إن أحسن دهرا إلى زوجته،فهي في لحظة واحدة تنكر كلّ ذلك الإحسان،ولاتذكر إلا أنّه أساء إليها ذات مرّة،قال ε:"أريت النّار فإذا أكثر أهلها النّساء يكفرن،قيل أيكفرن بالله؟ قال يكفرن العشير ويكفرن الإحسان،لو أحسنت إلى إحداهنّ الدّهر،ثمّ رأت منك شيئا،قالت ما رأيت منك خيرا قط"[٣].

المطلب الثاني: معالجة إغضاب الزوج وهجرانه

هذا سيّد الخلق محمّد εيقول فيه عزّ من قائل:"وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ"[٤]،ويأمرنا أن تأسّى به فيقول: "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ "[٥].

وقد رزق النّبي ﷺبأزواج اخترن الدّار الآخرة على زينة الحياة الدّنيا،والمرأة الصالحة من حسنات الدّنيا وخير متاعها،قال ﷺ:"الدّنيا متاع،وخير متاع الدّنيا المرأة الصّالحة"[٦] فهي السّكن الذي يحطّ فيه الزّوج رحاله،وتسكن فيه نوازعه،وتهدأ فيه مخاوفه،وتمسح فيه متاعبه،وتتوارى فيه هواجسه،وتتجلّى فيه محامده ويشمّ فيه أطيب ريح،ويسمع فيه أرقّ الألفاظ وألينها،وأحلى الكلمات وأعذبها،ويرى فيه جمال العشرة وبهاءها،وحسن الصّحبة وكرمها،فيتنفّس الصّعداء،وتنهض نفسه،وتنشط روحه،وتجدّد حياته كلّ حين.

وقد كان نبيّ الرّحمة في غاية اللّطف في معاملة نسائه،رقيق القلب معهنّ،يحسن إليهنّ ويغمرهنّ برأفته ورحمته،ومع ذلك لاينال أحيانا رضاهنّ،فيراجعنه،ويجدن في أنفسهنّ شيئا منه،وكانت الواحدة من

---

١ . البخاري . الجامع الصّحيح .كتاب النّكاح . باب المداراة مع النّساء . ص ٩٢٦ . رقم ٥١٨٤

٢ . البخاري . الجامع الصّحيح .كتاب النّكاح . باب الوصاة بالنّساء . ص ٩٢٦ . رقم ٥١٨٧

٣ . البخاري . الجامع الصّحيح .كتاب الإيمان . باب كفران العشير . ص ٨ . رقم ٢٩

٤ . سورة القلم . الآية ٤

٥ . الأحزاب . الآية ٢١

٦. مسلم . الجامع الصّحيح .كتاب الرّضاع . باب خير متاع الدّنيا . ص٦٢٧ . رقم ٣٦٤٩

أزواجه تهجره اليوم حتّى اللّيل،فعن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه قال:"كنّا معشر قريش نغلب النّساء فلمّا قدمنا على الأنصار إذا قوم تغلبهم نساؤهم،فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار فصخبت علـى امـرأتي فراجعتني،فـأنكرت أن تراجعني،قالـت ولم تنكـر أن أراجعـك فـوالله إنّ أزواج النّـبي ﷺ ليراجعنه،وإنّ إحداهنّ لتهجره اليوم حتّى اللّيل،فأفزعني ذلك وقلت لها قد خاب من فعل ذلك منهنّ،ثمّ جمعت عليّ ثيابي فنَزلت،فدخلت على حفصة فقلت لها أي حفصة أتغاضب إحداكنّ النّبي ﷺاليوم حتّى اللّيل؟قالت نعم فقلت قد خبت وخسرت أفتأمنين أن يغضب الله لغضب رسوله ٤فتهلكي،لا تستكثري النّبي ﷺولا تراجعيه في شيء ولا تهجريه وسليني ما بدا لك"[١].

وقد كانت مكانة أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها عند النّبي ﷺرفيعة،ولها فضل كبير على سائر النّساء،قالﷺ: "فضل عائشة على النّساء،كفضل الثّريد على سائر الطّعام"[٢].

وفي يوم من الأيّام اشتكت وجعا برأسها فقالت:"وارأساه،فقال رسول الله ﷺ:ذاك لوكان وأنا حيّ فأستغفر لك وأدعو لك،فقالت عائشة:واثكلياه،والله إنّي لأظنّك تحبّ موتي،ولو كان ذاك لظللت آخر يومك معرّسا ببعض أزواجك،فقال النّبيّ ﷺبل أنا وارأساه.."[٣].

وكـان لطيفـا بهـا يعـرف غضـبها فيتجـاوز عنهـا ولا يعنّفها،وقـد أخـبرت بـذلك عـن نفسـها فقالت:قـال رسـول اللّـه ﷺإنّي لأعـرف غضـبك ورضـاك،قالت قلـت وكيـف تعـرف ذاك يارسـول الله؟قال:"إنّك إذا كنت راضية قلت بلى وربّ محمّد،وإذا كنت ساخطة قلت لا وربّ إبراهيم،قالت قلت أجل لست أهاجر إلاّاسمك"[٤]

المطلب الثالث: معالجة الطعن في العرض

تـأخّرت أمّ المـؤمنين عائشـة رضـي الله عنهـا في غـزوة بـني المصـطلق للبحـث عـن عقـد وقـع منها،فنسـيها الرّكـب وارتحلـوا فأبصـرها رجـل مـن فضـلاء المسـلمين فعرفها،فأنـاخ لهـا النّاقـة وألحقهـا بالقافلة،فانتهزها المنافقون فرصة لقذفها وتشويه سمعة الرّسول ﷺ،فتحدّث النّاس بذلك،ولكنّ نبيّ الرّحمة تحمّل إذيتهم وصبر،وكان بإمكانه أن يستريح من هذا التّعب،وخاصة أنّ الوحي قد أبطأ عنه،فيطلّقها ويتزوّج غيرها،وكلّ امرأة ترجو أن تنال شرف الزّواج منه،لكنّه كان خير النّاس لأهله،فكان يزورها في

١. البخاري . الجامع الصّحيح .كتاب النّكاح . باب موعظة الرّجل ابنته . ص ٩٢٧ . رقم ٥١٩١
٢. البخاري . الجامع الصّحيح .كتاب فضائل أصحاب النّبي ٤ باب فضل عائشة رضي الله عنها . ص ٦٣٣ . رقم ٣٧٧٠
٣ . البخاري . الجامع الصّحيح .كتاب الأحكام . باب الاستخلاف . ص ١٢٤٣ . رقم ٧٢١٧
٤ . البخاري . الجامع الصّحيح .كتاب الأدب . باب مايجوز من الهجران لمن عصى . ص (١٠٦٠ . ١٠٦١) . رقم ٦٠٧٨

مرضها ويعاملها برفق ورحمة،ولمّا علمت بما يتكلّم النّاس فيها،لزمت البكاء حتّى كاد يفلق كبدها،وكانت تردّد قوله تعالى: "فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ "[١]،وبقيت على تلك الحال حتّى نزلت براءتها،وما كانت تظنّ أنّ الله تعالى سينَزّل في شأنها قرآنا يتلى إلى يوم القيامة،فتقول:"والله يعلم أني حينئذ بريئة وأن الله مبرئي ببراءتي ولكن والله ما كنت أظن أنّ الله منَزّل في شأني وحيا يتلى،لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلّم الله في بأمر،ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺفي النّوم رؤيا يبرّئني الله بها،فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولاخرج أحد من أهل البيت حتّى أنزل عليه،فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء حتّى إنّه ليتحدّر منه من العرق مثل الجمان،وهو في يوم شات من ثقل القول الذي أنزل عليه،قالت فسُرِّي عن رسول الله εوهو يضحك،فكانت أوّل كلمة تكلّم بها أن قال ياعائشة أمّا الله فقد برّأك،قالت فقالت لي أمّي قومي إليه،فقلت والله لا أقوم إليه،فإنّي لا أحمد إلاّ الله عزّ وجلّ،قالت وأنزل الله تعالى:"إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ[٢] "[٣].

ولايفهم من ردّ عائشة رضي الله عنها على أمّها بعدم القيام لرسول اللهﷺ،أنّها أساءت الأدب معه،بل غلب عليها مقام العبودية لله وحده،فقالت ما قالت،وهي التي عانت الهمّ والغمّ والحزن والمرض،ممّا قيل فيها،حتى أصبحت لا يرقأ لها دمع،ولا تكتحل بنوم.

وكانت هذه المحنة،شديدة الوطأة على الرّسول ﷺ، حيث مرّ بموقف صعب يفقد فيه الإنسان ضبط نفسه،ويعجز عن كتم غيضه،ويقسو فيه قلبه،ويتطاير غضبه،لكنّ الرّسول ε،كان في هذا البلاء الذي استهدف إبراز شخصيته مميّزة عن غيرها، الزّوج الرّحيم الذي جمع بين غيرة الرّجولة والرّحمة بأهله،فيقول لزوجه:ياعائشة إنّه بلغني عنك كذا وكذا،فإن كنت بريئة فسيبرّئك الله،وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه،فإنّ العبد إذا اعترف ثمّ تاب،تاب الله عليه"[٤]،بهذا اللّطف يخاطب زوجه العفيفة الطّاهرة،إنّه أرحم زوج عرفته الأسرة الإنسانية في تاريخها.

المطلب الرّابع: معالجة ضيق الحال

إنّ خشونة العيش التي كان يحياها الرّسولﷺ في بيته أحسّت بوجعها زوجاته،حيث كان لايوقد في بيته لمدّة طويلة،وكلّ مايكسبه ينفقه في سبيل الله،ويعطي عطاء من لايخشى الفاقة،فطلبن منه شيئا

---

١ . سورة يوسف . الآية ١٨

٢. سورة النّور . الآية ١١

٣ . البخاري . الجامع الصّحيح .كتاب الشّهادات . باب تعديل النّساء بعضهنّ بعضا . ص (٤٣١ . ٤٣٣) . رقم ٢٦٦١

٤ . البخاري . الجامع الصّحيح .كتاب الشّهادات . باب تعديل النّساء بعضهنّ بعضا . ص ٤٣٣ . رقم ٢٦٦١

من زينة الحياة الدّنيا وألححن عليه،فأمره ربّه أن يخيّرهنّ بين أن يذهبن إلى غيره ممّن يحصل لهنّ عنده زينة الحياة الدّنيا،وبين الصّبر على ما عنده من ضيق الحال،ولهنّ عند الله أجر عظيم،لأنّهنّ زوجات النّبيّ ε وهو القدوة الحسنة،وكذلك نساؤه ينبغي أن يكنّ قدوة مثله،لتكون دعوته واقعية،وليطابق قوله عمله، فقال تعالى:"يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلا وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا "[١].

فأقبل على نسائه بكلّ لين ولطف ورحمة،يعرض عليهن ماأمره الله من التخيير،وبدأ بعائشة رضي الله عنها فخيّرها بين زينة الحياة الدّنيا أو الدّار الآخرة،وطلب منها أن لاتستعجل حتّى تستشر أبويها فقال لها:ياعائشة إنّي ذاكر لك أمرا فلا عليك أن لا تعجلي فيه حتّى تستأمري أبويك" فقالت الزّوجة المؤمنة بكلّ ثقة ويقين حاسمة الموقف:أو في هذا أستأمر أبويّ،فإنّي أريد اللّه ورسوله والدّار الآخرة ؟"،ثمّ طلبت منه أن لايخبر بقيّة نسائه بجوابها،فقالت:لاتخبر نساءك أنّي اخترتك"،وكأنّ غيرتها أملت عليه مقالتها،عسى أن يخترن زينة الحياة الدّنيا فيسرّحهن،وتستأثر هي برسول اللهﷺويخلو لها دون غيرها،ولكنّ الرّسول الذي لم يكن رحيما بها فقط،بل بها وبجاراتها وبالنّاس جميعا،زجرها برحمة من غير تعنيف فقال لها:إنّ اللّه أرسلني مبلّغا ولم يرسلني متعنّتا "[٢].

إنّ كثيرا من النّساء يجهلن طبيعة الرّجل ولايرونه بعين الرّحمة التي يبغينها لأنفسهنّ،فيعتبرن قوّة الرّجل في مواجهة الأحداث عنفا وفظاظة،وصلابته في المصائب والأحزان غلظة قلب وقساوة،وغيرته الشّديدة عليهنّ تسلّطا وإهانة،وليس للرّجال إلاّ الصّبر عليهنّ ومصاحبتهنّ بالمعروف.

الطلب الخامس: معالجة الغيرة بين الضّرائر

عن أنس رضي الله عنه قال:كان النّبي ﷺعند إحدى أمّهات المؤمنين، فأرسلت أخرى بقصعة فيها طعام،فضربت يد الرّسول فسقطت القصعة فانكسرت،فأخذ النّبي εالكسرتين،فضمّ إحداهما إلى الأخرى،فجعل يجمع فيها الطّعام ويقول: غارت أمّكم كلوا،فأكلوا،فأمسك حتّى جاءت بقصعتها التي في بيتها،فدفع القصعة الصّحيحة إلى الرّسول،وترك المكسورة في بيت التي كسرتها"[٣].

---

١ . سورة الأحزاب . الآية ٢٨ . ٢٩

٢ . مسلم . الجامع الصّحيح .كتاب الطّلاق . باب في الإيلاء والاعتزال . ص (٦٣٨ . ٦٣٩) . رقم ٣٦٩٦

٣ . النّسائي . المجتبى من السّنن . تحقيق. عبد الفتاح أبو غدّة .كتاب عشرة النّساء . باب الغيرة .٧/٧٠ . رقم ٣٩٥٥ . قال الألباني:"صحيح"انظر إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السّبيل . ط٢. المكتب الإسلامي . بيروت ١٩٨٥م .٥/ ٣٥٩ ورواه البخاري . الجامع الصّحيح .كتاب المظالم والغصب . باب إذا كسرت قصعة أو شيئا لغيره . ص ٤٠١ . رقم ٢٤٨١

المطلب السادس: تركيزه ﷺ على إبراز الطّباع الحسنة

إنّ إنشاء علاقة قوية مع النّاس والمحافظة عليها،تستوجب معرفة مشاعرهم معرفة صحيحة،والتركيز على إظهار ما عندهم من طباع حسنة، وهذا دأبه ﷺ مع النّاس عامّة،ومع أزواجه خاصّة،حيث قال لعائشة : إني لأعلم إذا كنت عني راضية وإذا كنت علي غضبى. قالت: فقلت: من أين تعرف ذلك؟ فقال: " أما إذا كنت عني راضية، فإنك تقولين: لا وربّ محمد، وإذا كنت علي غضبى، قلت: لا وربّ إبراهيم" قالت: قلت: أجل والله يارسول الله، ما أهجر إلاّ اسمك "[١].

وكانε لا يتصيّد أخطاء نسائه، ولايجرح مشاعرهن، ولايديم عتابهن، ويتحمّل هفواتهن وصدودهنّ ويتجاوز عنهنّ ويعذرهنّ،ويرشدهنّ في رفق، ويصلح بينهن، ويركّز على طباعهنّ الحسنة، فيقول ε:" لايفرك مؤمن مؤمنة،إن كره منها خلقا،رضي منها آخر"[٢]، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال:صخبت عليّ امرأتي فراجعتني،فأنكرت أن تراجعني!قالت:ولم تنكر أن أراجعك؟فو الله إنّ أزواج النّبيّ صلى الله عليه وسلم ليراجعنه، وإنّ أحداهن لتهجره اليوم حتى الليل"[٣].

ومع ذلك كان يعاملهن بلطف،ويظهر لهن عاطفته وحبّه،وقد بلغ من ودّه لهن أن يضع فاه على الموضع الذي تشرب منه زوجه،فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أشرب وأنا حائض، ثم أناوله النّبيّ صلى الله عليه وسلم فيضع فاه على موضع فيّ، فيشرب، وَأَتَعَرَّقُ الْعَرْقَ[٤] وأنا حائض، ثمّ أناوله النّبيّ صلى الله عليه وسلم فيضع فاه على موضع فيّ "[٥].

المبحث الثالث: المشاركة الاجتماعية

إنّ المشاركة تعني قوّة وجود الشخص في المجتمع،في جميع المواقع التي تعود بالخير والنّفع على المجتمع،دون أن يُشعر النّاس بتعاليه عنهم،أو التكبر عليهم،أو طلب امتيازات خاصة لنفسه دونهم، بل يكون واحدا منهم، يساعدهم في أعمالهم،ويهتم بأمورهم، ويشاركهم في السرّاء والضرّاء، ويسعى لحلّ مشكلاتهم،وهذه الشمائل الحميدة هي مفتاح الدخول إلى قلوب النّاس،وكسب مودّتهم،واحترامهم،وهي السّبيل إلى تغييرهم نحو الأفضل،وقد كانت صفة المشاركة من أهمّ معالم شخصية الرّسولﷺ في سيرته

---

١ . البخاري ، الجامع الصحيح ، كتاب النكاح ، باب غيرة النساء ووجدهن ،ص ٩٣٤ ، رقم ١٠٩

٢ . مسلم . الجامع الصّحيح . كتاب الرّضاع . باب الوصية بالنّساء . ص ٦٢٦ . رقم ٣٦٤٥

٣ . البخارى، الجامع الصحيح ، كتاب النكاح ، باب موعظة الرجل ابنته لحال زوجها ،ص(٩٢٧ –٩٢٨)، رقم٥١٩١

٤ـ العظم الذي عليه بقية من لحم،هذا هو الأشهر في معناه"،النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، ط٢ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت١٣٩٢هـ،٣/٢١١

٥ . مسلم ، الجامع الصحيح ، كتاب الحيض ، بَابُ جَوَازِ غُسْلِ الْحَائِضِ رَأْسَ زَوْجِهَا،ص(١٣٧ – ١٣٨)، رقم ٦٩٢

الاجتماعية فقد تحمّل من قريش سنين الحصار والمقاطعة،في شعب أبي طالب،وكان كغيره من المسلمين ، لم يتميّز عنهم بشيء،ويشاركهم في كلّ شيء، يجوع كما يجوعون،ويتألم كما يتألمون،ويتحمّل المشاق كما يتحمّلون وزيادة،وفوق هذا العناء،وهذه المتاعب، كان إذا دخل بيته،صار في مهنة أهله، يفلي ثوبه،ويحلب شاته"[١]،و"يخصف النّعل ويرقّع الثوب ويخيط"[٢].

وإنّ المرء لا يدري ممّا يتعجب،أيتعجّب من خياطته ثوبه،وقد اجتمعت عنده أكثر من تسعة نسوة؟ أم يتعجّب من قدرته على توفير الوقت الذي يفرغ فيه لثوبه وشاته،وعلى عاتقه مسؤولية هداية العالمين!!؟.

إنّ المصطفى لم تمنعه أعماله الكثيرة، من المشاركة في بناء المسجد،أو النزول عند الفوارق الاجتماعية التي تصنّف النّاس إلى طبقات،وتميّز بينهم، ففي غزوة بدر كان عدد الجند يفوق عدد الرّواحل،فأمرε بأن يتناوب كلّ ثلاثة على راحلة،وطبّق مبدأ المساوة على نفسه،وشارك جنده في التناوب على الراحلة وهو الرّسول والقائد للمعركة، وفي غزوة الأحزاب كانε يشارك أصحابه في حفر الخندق، ولم يعتذر عن المشاركة بمقامه الأعلى،أو اعتبر الحفر انتقاصا من قدره ومكانته،وقد حاول أصحابه الكرام ثنيه عن العمل في الخندق،فأبى،وكانوا إذا عجزوا عن كسر الصخور التي تعترضهم في الحفر،هرعوا إليه ليكسرها ويزيلها من طريقهم،وكان يمشي في الأسواق،ويحمل أشياءه بنفسه،ويسلّم على الأطفال ويجالسهم ويداعبهم، من ذلك ما رواه البخاري بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن كان النّبيّ ε ليخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير:"ياعمير ما فعل النغير"[٣][٤].

المبحث الرّابع: بناء علاقات اجتماعية وترقيتها

اهتم بالضّعفاء اهتماما كبيرا،سواء أكانوا أطفالا أو شيوخا أو مرضى أو من ذوي الاحتياجات الخاصة،أو خدما وأمر برعايتهم نفسيا،واجتماعيا،وجعل النّصر متوقّفا على مدى اهتمام المجتمع بهم وحسن معاملتهم فقال:"إنّما ترزقون وتنصرون بضعفائكم"[٥].

---

١ . البخاري . الأدب المفرد . ص١٩١. رقم ٥٤١ . قال الشيخ الألباني:"صحيح". انظر صحيح الأدب المفرد . ص ٢١٥

٢ . البخاري . الأدب المفرد . ص١٩٠. رقم ٥٤٠ . وقال الشيخ الألباني:"صحيح". انظر صحيح الأدب المفرد . ص ٢١٥

٣. طائر يشبه العصفور،قيل أَحْمَر المنقار"، انظر ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري،ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة ، بيروت ١٣٧٩هـ، ١٩٧/١

٤. البخاري ، الجامع الصحيح ، كتاب الأدب ، باب الانبساط إلى الناس ،ص ١٠٦٨ ، رقم ٦١٢٩

٥. أبو داود . السّنن . كتاب الجهاد . باب في الانتصار. ص ٣٧٥ . رقم ٢٥٩٤ . قال الشيخ الألباني:"صحيح" ،انظر السّلسلة الصّحيحة . ٤٠٨/٢ . رقم ٧٧٩ .

وكان يأكل مع الخدم،ويقول عنهم:"إخوانكم خولكم،جعلهم الله تحت أيديكم،فمن كان أخوه تحت يده،فليطعمه ممّا يأكل،وليلبسه ممّا يلبس،ولا تكلّفوهم ما يغلبهم،فإن كلّفتموهم فأعينوهم"[١].

وهذا خادمه أنس بن مالك رضي الله عنه يقول:"خدمت النّبيّ صلى الله عليه وسلم عشر سنين، فما قال لي: أف،ولا: لم صنعت؟ ولا: ألا صنعت "[٢]، ونهى السيّد عن التعالي عن خادمه والتكبّر عليه فقال:"إذا صنع لأحدكم خادمه طعامه،ثمّ جاءه به وقد ذهب حرّه ودخانه،فليقعده معه فليأكل،فإن كان الطّعام قليلا،فليضع في يده منه أكلة أو أكلتين"[٣].

وكان يزور أقاربه،ويصل رحمه،ويفرح بلقائهم كما فرح بعودة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه من الحبشة،وحزن عليه حزنا شديدا عند استشهاده،وحزن على عمّه العباس حين وقع أسيرا في غزوة بدر، وخشي عليه القتل،وحين أسلم فرح بإسلامه أيّما فرح، كما أنّه يحسن إلى الجار،ويوصي به خيرا،حتى كاد أن يورّثه ويكرم الضيف،ويغيث الملهوف، وينصر المظلوم، ويأخذ على يد الظالم،ويعود المرضى، ويدعو لهم بالشفاء العاجل، وإذا كان المرضى غير مسلمين،عادهم أيضا ودعاهم للإسلام ،ويعامل الجميع أحسن معاملة، وهذه العلاقات الاجتماعية البنّاءة،ارتقى بهاع إلى مرتبة الواجبات.

المبحث الخامس: خبرتهع بضروب العيش

خبر النّبيّﷺ الحياة وضروب العيش فيها،فرعى الغنم،وعرف عن كثب حياة الرّعاة وظروفهم،وأخذ من الرّعي الحذر واليقظة،والنّباهة،والشفقة والحنان،وردّ الشارد إلى الجماعة، والتأمّل والتفكير، والاهتمام بغيره،ومدّ يد العون للمحتاج،والحرص على أمنه وسلامته، ونصرة المظلوم،والحرص على أخذ حقّه من ظالمه،كما اشتغل في التجارة،وسافر فيها،وعرف دروبها، ،وتعامل مع التجّار، وربح في تجارته، وكان يجوب الأسواق، ويراقب الأسعار،ويفحص البضائع،ويقول:"من غشّنا فليس منّا"[٤]، كما أنّه اعتزل انحراف وفساد ما عليه قومه الذين نشأ بينهم، حتّى إنّه كان يخلو بنفسه في غار حراء، ويتحنّث فيه الليالي ذوات العدد، وهو خير من يحفظ الودائع والأمانات، حتّى سمّاه قومه بالصادق الأمين، ولما اتفق الكفّار على قتله،واضطرّوه للهجرة، أوصى عليّا رضي الله عنه أن يردّ الأمانات المحفوظة عنده لأهلها.

---

١ . البخاري . الجامع الصّحيح .كتاب الإيمان . باب المعاصي من أمر الجاهلية . ص ٨ . رقم ٣٠

٢. البخاري ، الجامع الصحيح ، كتاب الأدب،باب حسن الخلق والسخاء،وما يكره من البخل،ص١٠٥٥،رقم ٦٠٣٨

٣ . مسلم . الجامع الصّحيح .كتاب الإيمان . باب إطعام المملوك ممّا يأكل . ص ٧٣٢ . رقم ٤٣١٧

٤ . مسلم ، الجامع الصحيح ، كتاب الإيمان ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «من غشنا فليس منا» ، ص ٥٧ ، رقم ٢٨٣

كلّ هذا يدلّ على عمق معرفته وخبرته بحال العباد والبلاد،وضروب العيش،وحاجة العالم إلى رسالته،وإمامته،صلوات ربّي وسلامه عليه.

أهمّ نتائج البحث:

١- جمال وجلال وكمال شخصية النّبيّ ﷺ.

٢- التوازن النّفسي والسّلوكي في شخصية الرّسول ﷺ.

٣- تركيزه على إبراز الطّباع الحسنة في النّاس.

٤- مخالطته للنّاس وتواصله معهم.

٥- مشاركته في الأعمال الاجتماعية،وعدم تميّزه عنهم.

٦- حرصه على وجوب إقامة علاقات اجتماعية بنّاءة.